تدبـر
سورة الحـج

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا
وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾
الحج(٢٧)

د. رقية العلواني



بسم الله الرحمن الرحيم

تدبر
سورة الحج

د. رقية العلواني

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هنيئا لكل من أكرمه الله سبحانه بحج بيته الحرام، وإليكم جميعا هذه السطور المأخوذة من تدبر سورة الحج العظيمة. إذ حري بكل مسلم أن يتدبرها ويقف عند آياتها ومعانيها العظيمة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ
تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ
حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ
ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ
كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ
وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ
مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ
مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا
نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ
مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ
ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧

هذه السورة العظيمة عدّها المفسرون من أعاجيب السور. نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً ونهاراً سفراً وحضراً منها ما نزل في مكة ومنها ما نزل في المدينة منها ما نزل عليه وهو في حال السلم ومنها ما نزل عليه وهو في حال الحرب.

هي السورة الوحيدة التي اتخذت اسم ركن من أركان الإسلام. فلا سورة للصلاة ولا سورة للصيام ولا للزكاة ولكن هناك سورة الحج.

من أعظم مقاصد سورة الحج، التقوى وتنمية القلب العامر بها، المخبت الخاشع الخاضع لربه سبحانه وتعالى. السورة بأكملها من أول آية حتى آخر آية بكل ما جاء في السورة من أحكام ومن أركان ومن آيات عظام جاءت تنمّي في نفوسنا وتبني فيها التقوى خطوة خطوة. ابتدأت السورة بقضية قد يظهر لقارئها في البداية أنها لا علاقة مباشرة تربط بينها وبين ركن الحج الذي سميت السورة على اسمه. فالسورة في أول آياتها تخاطب الناس أجمعين وليس المؤمنين فحسب. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ تخاطب البشرية ب:﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أول خطاب يخاطب به الله سبحانه وتعالى كل الناس في السورة بالتقوى ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾!.

زلزلة الساعة ..ذلك اليوم الذي يغفل عنه كثيرون في شدة انشغالهم بالحياة، على الرغم من أنهم يسيرون نحوه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم.

ذلك اليوم الذي سيراه الجميع عيانا مهما حاولوا التهرب منه أو إنكار وقوعه، قادم بكل أهواله التي تجعل المرضعة التي هي أشد ما تكون التصاقاً ومحبة برضيعها تصاب بحالة من الذهول تجعلها غافلة عن رضيعها، لا تلتفت إليه. وترى الناس جميعاً في حالة من الذهول والكرب والحزن الشديد ما يجعلهم في حالة أقرب إلى السكر وغياب العقل و عدم الإدراك لما يدور حولهم نتيجة للأهوال الشديدة التي يرونها بأعينهم.

وهنا يتدبر الإنسان:ما الذي يمكنني تقديمه للنجاة من تلك الاهوال؟ هل من سبيل للنجاة؟ هل من منفذ؟ كيف يمكن أن أخلّص نفسي من أهوال ذلك اليوم العظيم؟ كيف أستطيع وأنا اليوم في دار العمل في الدنيا أن أقدم بين يدي ذلك اليوم أعمالاً وصفات تنجيني من ذلك اليوم العظيم؟.

سورة الحج تقدم الإجابات على كل تلك الأسئلة الملحة ولكن بطريقة عملية. الآيات تأخذنا إلى أساس الداء أساس الغفلة عن يوم القيامة على الرغم من أنه قادم. وتقسم الناس إلى أنواع بحسب موقفهم من الإيمان بالبعث ويوم القيامة. فعلى الرغم من أنها قضية محسومة تماماً لا جدال فيها، إلا أن هناك صنفا من البشر يجادل بغير الحق في وقوع ذلك اليوم العظيم، ليس لديه حجة ليس لديه دليل على ما يتوهم من عدم وقوع ذلك

اليوم العظيم، لكنه اتباع الهوى وإتباع الشيطان الذي يدلي للإنسان بغرور ويمنّيه ويعده بإستحالة وقوعه أو تأخره فيمد له بطول الأمل.

الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان، لا يتم إيمان الواحد منا أبداً إلا به. ولماذا كان الإيمان بالبعث على هذه الدرجة من الأهمية؟.

الإيمان بالبعث قضية مصيرية قضية تعتمد عليها كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان في الحياة الدنيا، في دار العمل. قد أعيش وأقدم العمل الصالح الطيب الخيّر ولكني لا أجد ثمرة له في الدنيا، من سيجازيني على عملي ومتى!!

من منّا في الحياة التي نعيشها اليوم، لم تمر عليه ساعة استشعر فيها بأنه قد ظُلِم؟ قد بُخِس فيها حقه؟ موقفاً نال منه شخص من الناس بغير حق؟ من منا لم يشعر في لحظات في حياته أنه لا بد أن تكون هناك محكمة عادلة، محكمة لا تقوم على أساس إختبارات البشر ولا على أساس أحكام البشر ولا على تصوراتهم؟ من منا لم يستشعر بأن هذه الأرض التي نعيش على ظهرها ينقصها عدالة حقيقية مطلقة غير خاضعة لأهواء البشر أو لمصالحهم ومقاييسهم؟ الإيمان بالبعث، هذا الركن العظيم،هو الذي يجعل هذه الأحاسيس تقف عند الحد الذي ينبغي أن تقف عنده، ويستمر المؤمن في عمل الخير وإن لم يجني ثمرته في الدنيا

ويفوض أمره إلى خالقه حين تعجز محاكم البشر عن أخذ حقوقه والدفاع عنها.

فهناك يوم الدين ،يوم الجزاء الحقيقي، حيث تُوفى كل نفس بما كسبت ..لا ظلم اليوم، فالملك والحكم لله وحده القهار العدل.

الإيمان بالبعث يخفف وطأة وقائع الحياة وما يدور حولنا من أحداث على نفوسنا، يشعرنا بحقيقة قد نغفل عنها أحياناً، أن هذه الدنيا التي نعيش فيها هي دار عمل وليست دار جزاء.

قد أعمل أعمالاً صالحة عظيمة وكبيرة ولكنني لا أجد ثمرة لهذا العمل لسبب أو لآخر. قد أقوم بكل ما استطيع أن اقوم به كبشر، لكن لا ثمرة لعلمي، لا أجد من أهلي وأقاربي ومكان العمل الذي أعمل فيه والمجتمع الذي أعيش فيه لا أجد الجزاء الأوفى، من الذي سيجازيني؟ من الذي سيعطيني؟ من الذي سيكافئني؟ الله سبحانه وتعالى. يوم الجزاء هو يوم الراحة والهناء للمؤمن وللإنسان الصادق المخلِص الوفيّ في عمله الذي نال في الدنيا ما ناله.

ثم إن الإنسان حين يعيش دون أن يستشعر أن هناك رقيبا عليه أن هناك حساباً، وأنه سيقف بين يدي الله سبحانه ويحاسبه ولماذا فعلت؟ وكيف فعلت؟

عندما يشعر بالبعد والانفصال عن كل هذه الأنواع من الرقابات، قد تسوّل له نفسه أن يعبث في الأرض بما يشاء من أنواع الفساد من أنواع التخريب،والظلم والاعتداء على حقوق الآخرين. ما الذي يردعه؟ يوم البعث يوم الجزاء، يوم الإنصاف، يوم الحساب.

والحج وشعائره من أكثر ما يحيي في الناس الإيمان بالبعث كما سنأتي عليه في موضعه.

وانظر إلى الآية التي تليها الآية الخامسة وهي تناقش الإنسان المتكبر المتجبر الذي يجادل في الله بغير علم، تناقشه إن كان يملك بقية من عقل ومن منطق ومن إحساس، تناقشه، ليس بمنطق الغيب الذي يؤمن به المؤمن فحسب، وإنما بمنطق الحس الذي لاينكره أحد: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ تقرب للإنسان الوضع، كيف تجادل في وقوع البعث؟ كيف تناقش في قدرة الله عز وجل على إحياء الناس بعد الموت؟ كيف تجادل وهو سبحانه الذي خلقهم من تراب! خلق آدم من تراب، كيف تجادل وأنت ترى الجنين كيف ينمو ويمر بتلك المراحل التي ذكرها القرآن قبل ما كشف عنه العلم بمئات السنين!

هذه الأطوار العجيبة من الذي خلقها؟ من الذي سواها؟ من القادر

سبحانه وحده دون سواه أن يغير من نطفة إلى علقة؟ من الذي يستطيع وحده دون سواه أن يغيّر من العلقة إلى المضغة؟ من؟ من يملك كل هذه القدرة المطلقة حتى يستطيع أن يجادل بعد ذلك.

وتقدم الآية العظيمة صورة أخرى للإنسان، صورة تهز الإنسان من أعماقه من جديد، تدق له كل أجراس الإنذار لتوقظه من سباته العميق لتشعره بأن يوم القيامة - مهما حاولت الهروب منه مهما حاولت أن تهرب من الجزاء، مهما حاولت أن تهرب من تلك المحكمة التي ستأتي لا محالة لن تستطيع الهروب- صورة تتعلق أيضاً بمسألة حسية نراها أمام أعيننا ليل نهار. ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ خامدة في حالة موت هامدة ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء ﴾ من الذي ينزل الماء؟ الله سبحانه وتعالى ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ سبحان الله العظيم! آية في غاية الإعجاز والعظمة! كل ما أحتاج إليه لاستشعار عظمة هذه الآية أن أنظر في الواقع الذي أعيش، أن أتدبر في الكون الذي حولي، الذي ينطق بقدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة. من الذي يحيي الأرض بعد موتها؟ أليس هو الله سبحانه؟ من الذي يعيد الحياة إلى الأرض الميتة بعد أن قد جفّت وانتهت كل أشكال الحياة فيها، لا نبات ولا عشب ولا حياة على الإطلاق ينزل الله سبحانه وتعالى الماء بقدرته على هذه الأرض الميتة فيحييها من جديد لينبت فيها كل

أنواع النبات من كل زوج بهيج.

هذه الآية العظيمة وحدها إذا تدبر فيها الإنسان وربط بين ما يراه في الكون وبين كلمات الآيات، تجعل الإنسان يستفيق، يتخلى عن كبريائه، يتخلى عن عناده، يتخلى عن إصراره الكاذب وجداله بغير علم في قدرة الله سبحانه وتعالى على الإعادة إلى الحياة بعد الموت.

الآن، بعد أن تم بناء الإيمان بالبعث والإيمان بأنَّ هناك يوماً قادماً لا محالة، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ الله سبحانه وتعالى سيحاسب ويجازي، وهناك محكمة عادلة تحاسب الناس على أعمالهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم، إعمل ما شئت في الدنيا ،ولكن ضع أمام عينيك أنك ستحاسب على كل ما تقوم به.

هذه الحقيقة الحاضرة الغائبة عن أذهان كثير من الناس ترسخها سورة الحج. ولكن لماذا جاءت سورة الحج بهذه البداية العظيمة والحديث المتواصل القوي الحاضر عن قضية البعث؟ لماذا؟ ما العلاقة بين الإيمان بالبعث وبين الحديث عن الحج؟!.

ما العلاقة بين هذه البداية التي تركز في نفس الإنسان الإيمان بالبعث والكلام عن الحج؟ السورة تتحدث عن الحج وسيأتي الحديث عن الحج فلماذا الكلام في البداية عن البعث؟ سبحان الله العظيم!

القرآن مُعجز في كل شيء مُعجز في تناسب الآيات والسور، مُعجز في ترتيب الايات في السورة الواحدة، مُعجز في تقديم الأمثال، مُعجز في كل شيء، يا سبحان الله!

من أراد أن ينظر إلى منظر مصغّر ليوم البعث وليوم القيامة فلينظر إلى الحج بتدبر. من أراد أن يستحضر مواقف وأهوال يوم القيامة بصورة مصغّرة، فليذهب إلى الحج؟ كيف؟!

وقوف الناس وتزاحمهم وانتظارهم وما يظهر عليهم من آثار السهر والتعب الشديد والنصب ...مظاهر أريد لها أن تجعل الإنسان يقترب من استحضار البعث.

حال البشر وهم يجتمعون في حالة انكسار وذل وخضوع وتضرع بين يدي الله سبحانه وتعالى. اللباس البسيط الذي يلبسه كل الحجيج دون طبقية، دون فرق بين عزيز وذليل، دون فرق بين غني أو فقير، دون فرق بين أسود أو أبيض، الكل يلهج بالدعاء والتضرع والخضوع والانكسار والذلة لله سبحانه وتعالى، للواحد، للملك، يقفون في هذه المواقف والمشاعر فيطلبون شيئاً واحداً الكل يشتركون في طلب شيء واحد: العفو والمغفرة من رب كريم.

تركوا من، ورائهم الدنيا، تركوا الأعمال، تركوا المناصب، تركوا الأهل، تركوا الأولاد، تركوا كل شيء، كل ما كان يشدهم بعيدا عن خالقهم، كل ما شُغِلوا به...

هذه المواقف العظيمة تذكّر بمواقف يوم القيامة، ولكني اليوم حين أقف في الحج في المشاعر المقدسة على جبل عرفة في منى، مزدلفة ..لا زلت في دار العمل والحج عمل ومن أعظم العمل. أما يوم القيامة فسأقف مواقف الترقّب والتوجس، ولا حيلة لي من عمل فقد انتهى أوان العمل وبقي الجزاء.

هذا الربط الذي ينبغي أن يستحضره كل من يقف في مواقف الحج العظيمة، كل من يقف على جبل عرفة عليه أن يتذكر ذلك الموقف الرهيب الذي سيأتي لا محالة. كل من يقف وينفر من منى إلى عرفة إلى مزدلفة عليه أن يتذكر تلك المواقف العظيمة، عليه أن يتذكر تنقله بين مواقف وعرصات يوم القيامة عليه أن يتذكر الحال التي سيكون عليها، عليه ألا ينسى أبداً أنه اليوم لا يزال في سعة، فهو لا يزال في دار العمل، فليقدم بين يدي الله سبحانه من الأعمال ما يستطيع أن يقدّمه قبل فوات الأوان.

الإيمان بالبعث يبقى دائماً حاضراً في سورة الحج ليؤكد على معاني التقوى في النفوس ليكون هو الدافع الرئيس للإنسان للعمل والتزود للآخرة، للتضحية بالفاني لأجل الباقي.

الحاج حين يستحضر هذا المعنى، سيدفع به ذلك لتقديم حج مبرور، لا جزاء له سوى الفوز بالجنة مهما تطلب ذلك منه من حرص ومجاهدة للنفس.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ
مُّنِيرٖ (٨) ثَانِىَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَا خِزۡىٞۖ
وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ
حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ
عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ
ٱلۡمُبِينُ (١١) يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (١٢) يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ
ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا
يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ
مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يُرِيدُ (١٦)

و تبقى قضية الإيمان بالبعث حاضرة في السورة. فهناك صنف آخر من الناس لم يجعلوا الإيمان بالبعث حقيقة واقعة مطبَّقة في حياتهم. هذا الصنف من الناس قد يؤمن بالبعث استحضار هذه العلاقة. فيها ضعف شديد. فيها نوع من أنواع الخنوع للدنيا ومطالبها. كيف؟ يقول الله سبحانه وتعالى واصفاً هذه الفئة من الناس ﴿ وَمِنَ النَّاس مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ هذا النوع من الناس علاقته مع الله عز وجل علاقة قائمة على المنفعة. يعبد الله طالما أن طاعة الله سبحانه وعبادة ربه عز وجل وتقرّبه من الله سبحانه. يأتي له بالخير. بالمنافع الدنيوية. قد يجد زيادة في رزقه. قد يجد بركة في وقته. في ماله. في أولاده. في صحته. قد يجد هذه الأمور. فكلما زاد له الله سبحانه من أمور الدنيا. كلما ازداد تقربًا وصلاحا. فإذا ماً تغير الحال. وبدأت الأمور بالتغير. كأن يصاب بأي نوع من أنواع الانتكاسات أو الابتلاءات أو الامتحانات التي يتعرض لها البشر. بدأ يتذمر. يتراجع في التزامه مع الله عز وجل. بدأت ثقته بربه تضعف. فيتساءل :يا رب أنا ازددت لك صلاة. أنا ذهبت إلى الحج أنا ازددت في التزامي فلماذا بدأت الابتلاءات تأتي على رأسي واحدة بعد الأخرى كلما ازددت التزاماً وتقرباً منك؟!

هذا النوع من التساؤل غير مقبول. علاقتي مع الله عز وجل

ينبغي أن تكون علاقة ثابتة، علاقة مطلقة لا تهزها النوائب ولا تغيرها المصائب، أحبه في السراء وأحبه في الضرّاء، أحبه في الرخاء وأحبه في الشدّة، أحبه في الصحة وأحبه في المرض أحبه إن أقبلت الدنيا عليّ وأحبه سبحانه إن أدبرت الدنيا عني. ليس المقياس لدي إقبال الدنيا أو إدبارها، بل المقياس الحقيقي عندي ثقتي ويقيني المطلق بالله سبحانه وتعالى يقيني الذي لا يتزعزع . ثقتي المطلقة بخالقي سبحانه أنه حين يمنع عني، فمنعه خير لي وعطاء، منعه لأجلي، ابتلاؤه هو خير لي. قد لا أرى الحكمة من وراء هذا الابتلاء أو الامتحان، قد لا أرى الحكمة في الانتكاسة التي أصابتني في مالي أو في تجارتي أو في صحتي..ولكن أمر المؤمن كله خير إن أصابتني السراء شكرت وحمدت وتقربت إلى الله عز وجل وإن أصابتني الضراء صبرت فكان كذلك خيراً لي.

هذا النوع من العلاقة هو ما تريد آيات سورة الحج أن تبنيه في نفسي، علاقة حسن الظن والثقة المطلقة بالله سبحانه، اليقين بأن الله سبحانه وتعالى لا يختار لعبده المؤمن المتقرّب المُقبل عليه إلا الخير في كل شيء.

ولذا كان حسن الظن بالله سبحانه من حسن العبادة، ولذا ربي عز وجل يقول في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي.) ظنّ الإجابة عندما تدعو الله سبحانه وتتوجه إليه، وظنّ القبول

عندما تطلب المغفرة منه، وظنّ التوبة عندما تتوب وتؤوب إلى خالقك سبحانه كما يقول القرطبي.

دعونا نتأمل موقف النبي صلى الله عليه وسلم حينما هاجمه وطرده أهل الطائف. ذهب بدعوته إليهم، وتجشم العناء والتعب، فما ناله منهم سوى التكذيب ورمي صبيانهم له بالحجارة. هل تراجع؟ هل تراجعت ثقته بربه وبخالقه؟ أبداً، ما كان منه إلا أن شكا إلى ربه وناجى خالقه سبحانه فقال: (إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي لك العتبى حتى ترضى ولا حول لا قوة لي إلا بك). هذا هو الإيمان الثابت، هذا هو الإيمان الذي أنا بحاجة شديدة إليه اليوم.

إذ أن عدم الثقة بالله سبحانه، أو ضعف الثقة بالله، أو عدم إحسان الظن به يجر الإنسان إلى الإستعانة بالمخلوقين دون الخالق، وهذا خلل في التوحيد عظيم.

﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ ضعف الثقة و اليقين بالله سبحانه وبه يجر الإنسان إلى الوقوع في موالاة المخلوقين دون الخالق في طلب الرزق منهم والاستعانة بهم، وطلب نصرتهم دون الاستنصار والاستعانة بخالقه عز وجل.

ويعلق قلبه ليصفه الله تعالى قائلاً:﴿ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾. حينما يذهب الإنسان إلى الحج ويرى بأم عينه تضرع الخلق إلى خالقهم، الغني والفقير، القوي والضعيف، العزيز والذليل، الكبير والصغير، الأسود والأبيض، العربي وغير العربي، كلهم يشعرون بالحاجة إلى الخالق سبحانه. هذا الإحساس والشعور يوقظ في النفس الشعور الذي تعززه هذه الآيات أن لا ناصر إلا الله، ولا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا معين إلا الله، ولا مجير إلا الله سبحانه وتعالى. وهذا الإحساس بالضبط هو ما تبنيه في النفس آيات سورة الحج.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ
وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ
ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ
۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾
يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ
حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا
وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى
ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ
لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ
نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾

تستمر السورة في تعزيز الإيمان بالبعث واستحضار هذه الحقيقة وتأكيدها في كل الآيات إلى أن تصل إلى قول الله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ بعد تركيز الإيمان بالبعث في قلب المؤمن وفي نفسه، تُدخل الايات في منظومة التسبيح والسجود لخالقه سبحانه، كل ما في الكون من شجر، من قمر، من نجوم، من جبال، كل ما في الكون يسجد لله خضوعاً وانقياداً واستسلاماً. لماذا ينقاد الكون من حولي ولا أنقاد أنا الإنسان لخالقي سبحانه؟ لماذا لا أشعر بعظمة هذا الخالق فأنقاد لأوامره بسلاسة وخضوع كما تخضع بقية الكائنات؟ تعظيم السجود في هذه الآية على وجه التحديد لها مغزى لها مقصد عظيم، تأملوا معي قول الله

﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ من يتعالى عن السجود لخالقه، من لا يخضع لخالقه سبحانه بالسجود والتذلل والانكسار بين يديه إنما هو في حقيقة الأمر يهين نفسه. قمة الإهانة ألا يخضع الإنسان لخالقه، لماذا؟ لأنه إن لم يخضع لخالقه قطعاً سوف يخضع لمخلوق، وتلك هي قمة الإهانة، في حين أن قمة الكرامة والعزة أن يخضع لخالقه، قمة الكرامة أن يضع جبهته على الأرض سجوداً وانصياعاً وخضوعاً وانقياداً لأمره سبحانه وتعالى. فالجباه تسجد

والقلب يخضع لخالق عظيم، لخالق لا يخرج شيء في هذا الكون عن إرادته وقدرته وقوته سبحانه.

ثم تتوالى الآيات آية بعد آية لتستحضر وتذكّر الإنسان دائماً بالجزاء ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ ثم تأتي عن المؤمنين فتقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ يتكرر في سورة الحج ذكر الجزاء للمؤمن وغير المؤمن آية بعد آية، ويكاد يأتي بعد كل مقطع من مقاطع سورة الحج الحديث عن الجزاء؟.

كما ذكرنا في البداية فإن سورة الحج تريد أن تبني في نفسي التقوى، تريد أن تصنع من قلبي قلباً مخبتاً متواضعاً عائداً لربه سبحانه، وأعظم وسيلة لصناعة التقوى، ولبناء القلب المخبت الراجع المتواضع إلى ربه المنكسر بين يدي خالقه التذكير المستمر بالبعث، بجعل قضية القيامة وقضية الجزاء قضية حاضرة كأني أنظر إليها، كأني أراها أمام عيني ليل نهار، لا ينبغي أن تغيب عن عيني أبداً، لا ينبغي أن يغيب استحضار اليوم الآخر عن قلبي، وعن واقعي، وعن سلوكياتي. وهنا يحضرنا تصرّف النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، النبي صلوات الله وسلامه

عليه كان كلما جلس مجلساً مع أصحابه ذكّرهم بيوم البعث، ذكّرهم بالجزاء وبالآخرة، ليجعل قضية الآخرة حاضرة دائماً كأنهم يعيشونها، ليكونوا أكثر تمسكاً بها، وأشد حبا وإقبالا عليها، وأكثر ابتعاداً عن ملهيات الدنيا ومغرياتها.

عن أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ﴿ أُهْدِيَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُبَّةُ سُنْدُسٍ وَكَانَ يَنْهَى عَنْ الْحَرِيرِ فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ﴾ رواه البخاري.

ما الذي جاء بذكر مناديل سعد في الجنة في هذه القضية المادية المحسوسة التي كانت أمام أعينهم؟ أراد أن ينقلهم نقلة سريعة وواضحة وقوية من التأمل في مسألة دنيوية، كقطعة الحرير التي بين أيديهم إلى الربط بمسألة أخروية متمثلة في مناديل سعد بن معاذ في الجنة.

عندما أجعل الآخرة حاضرة في ذهني وفي واقعي، أعيشها قبل أن أصل الآخرة يدفعني ذلك إلى التضحية، يدفعني ذلك إلى أن أقدّم ما لدي في الدنيا مهراً لتلك الآخرة، مهراً للجنة، هذا الاستحضار للآخرة، يدفع بالإنسان للعمل والسير نحوها بخطى واثقة.

عَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عَمَّهُ غَابَ عَنْ بَدْر فَقَالَ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أُجِدُّ فَلَقِيَ يَوْمَ أُحُدٍ فَهُزِمَ النَّاسُ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ أَيْنَ يَا سَعْدُ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ فَمَضَى فَقُتِلَ فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِشَامَةٍ أَوْ بِبَنَانِهِ وَبِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ. رواه البخاري

ما الذي أبعدنا اليوم عن الآخرة؟ ما الذي جعلنا نتشبث بالدنيا تشبثاً شديداً؟ جعلنا لا نستطيع أن نضحي بشيء من متاعها الزائل؟ ما الذي جعلنا نصل إلى هذه الحالة؟ إنه عدم استذكار الآخرة، البعد عن استحضار الإيمان بالبعث، البعد عن استذكار الجنة استذكاراً يجعل الجنة حاضرة في واقعنا، حاضرة في قلوبنا. فإن سكنت وعلى سبيل المثال بيتاً جديدا، استحضرت وبيوت الجنة استحضرت وقصور الجنة، استذكرت وحرير الجنة حين أرتدي لباساً جديداً، حين أشمّ ريحاً طيباً في نفسي ما بال ريح الجنة؟ كيف ستكون الجنة؟ كيف ستكون أنهار الجنة؟ إن رأيت منظراً حسناً من مناظر الدنيا أو تأملت في الكون، استذكرت الجنة استذكرت الآخرة .هذا هو ما نحتاج إليه لنصل إلى إيمان حقيقي يجعل التقوى في قلوبنا وفي واقعنا وفي سلوكياتنا، وهذا ما تبنيه فيّ سورة الحج آية بعد آية.

وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا
وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾
وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ
يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ
فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ
وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ
حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا
يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ
ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ
سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى
ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى
ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ
أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾

ثم تنتقل الآيات إلى قول الله عز وجل ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الجزاء حاضر، والجزاء من جنس العمل، قبل أن يقوم الإنسان بالعمل يذكره بالجزاء. أنت حين تقوم بعمل صالح قدّم الله لك الجزاء قبل أن تقوم بالعمل.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن موضوع السورة الرئيس والأساس هو الحج وتأمل معي قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ انتقال مباشر من الصور المتفاوتة في الآخرة الى التفاوت في الدنيا. كما أن هناك في الدنيا مؤمنين الغاية الرئيسة في قلوبهم وفي حياتهم أنهم يهدون الناس إلى صراط الحميد، كذلك هناك أناس لا غاية لديهم سوى الشر وصد الناس عن سبيل الله والكفر والصدّ عن المسجد الحرام.

بدأت الآيات بالحديث عن قدسية هذا المكان العظيم وتأملوا معي كيف سماه الله تعالى المسجد الحرام وفي آيات أخرى البيت الحرام.. جعله ربي سبحانه من عنده محرّماً على أيّ نوع من أنواع الإفساد، أيّ نوع من أنواع التخويف أو الترهيب لنفوس من جاء إلى هذا البيت. هذا البيت جعله الله سلاما، جعله الله أمانا، من دخله كان آمناً، آمناً في نفسه آمناً في ماله آمناً في قلبه،

آمناً على عرضه، أمّنه الله سبحانه لدرجة أن الناس في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يقدّسون هذه الحقيقة ويحترمونها ويقفون عندها، فمن دخل في المسجد الحرام كان معصوم الدم لا يناله سوء، حتى إن من رأى قاتل أبيه في البيت الحرام لا يتمكن من أن يمتد إليه بأي نوع من أنواع الأذى تقديساً واحتراماً وعصمة لهذا البيت العظيم، البيت الحرام.

جعله الله بيتاً وسماه البيت الحرام ليكون فيه الصفاء والنقاء،ليكون فيه استرداد المؤمن لروحه ولجوهره ولأصله. أنزل الله سبحانه فيه السكينة والأمن والإيمان لأجل هذه الغاية. كل من أتعبته هموم الحياة، ومشاغلها كل من أرهقته الدنيا وابتلاءاتها يأتي إلى هذا البيت الحرام، لن يجد فيه إلا الأمن والأمان والصفاء والنقاء والسكينة، هذا وعد من رب العالمين.

وفي نفس الوقت ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ مجرد إرادة! قد لا يُقدِم، مجرد تفكير مجرد أن يريد أن يفعل هذا الفعل يتّوعده الله عز وجل بالعذاب الأليم، لماذا؟ حفاظاً على قدسية هذا المكان العظيم، حفاظاً على مكانته في القلوب وفي النفوس المؤمنة التي جاءت إليه من كل فجّ عميق، لتجد الأمن والسكينة والراحة التي جاءت تبتغيها في هذا المكان العظيم.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ بدأت الآيات بالحديث عن الحج من خلال الحديث عن مكانة وقدسية البيت الحرام وقصة بنائه.ربطت الآيات هذا البناء العظيم الذي نراه اليوم بعد الآف السنين ،بإبراهيم عليه السلام. هذا الربط العظيم، يذكرنا بالتوحيد، التوحيد الذي أقام على أساسه إبراهيم عليه السلام قواعد هذا البيت. هذا البيت العظيم ليس مجرد أحجار بنيت حجارة فوق حجارة، هذا البيت العظيم قام على التقوى قام على التوحيد قام على ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾. هذا البيت العظيم طُهّر من الشرك قبل أن يطهّر الطهارة الحسية، طُهّر طهارة معنوية.

بناء متواصل، بناء عميق في البشرية، بناء يذكرني اليوم وأنا أذهب إلى الحج أن رسالة التوحيد الخالدة عميقة الجذور في تاريخ البشرية، وأنها هي الأصل، وأن عدم التوحيد والابتداع والبُعد عن الله سبحانه وتعالى والشرك كل هذه المظاهر هي مظاهر طارئة على البشرية.. الأصل في البشرية هو التوحيد.

ولذا على المؤمن المقبل على هذا البيت العظيم أن يطهر قلبه من الشرك كطهارة هذا البيت الذي يطوف به من الشرك.

ولذا جاءت الآية ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾. أحتاج قبل أن ابدأ بشعائر الإحرام وأرتدي لباس الإحرام أن أطهر قلبي من كل شرك، من كل خلل في التوحيد ظاهرا كان أو خفيا، أن أطهر قلبي وأصفّيه وأنقّيه من كل ما يمكن أن يصدّ عن سبيل الله عز وجل.

أحتاج أن أغسل قلبي وأطهّره من أن يلتفت إلى أي أحد سوى الله سبحانه وتعالى إيماناً أو يقيناً أو استعانة أو استنصاراً أو استرزاقا. أطهر قلبي من كل حقد على أي أحد حتى يصفو القلب ويتطهر من كل ما يمكن أن يحول بينه وبين إخباته لخالقه سبحانه.

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ أذّن في الناس هذا النداء الخالد العظيم الذي قام به إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء.

الحجيج ضيوف، دعاهم خالقهم للحج ولزيارة بيته الحرام، فلبوا النداء ونزلوا في ضيافة الرحمن سبحانه. فأنت اليوم يا من قصدت الحج، ضيف الرحمن. فكيف يتصرف الضيف؟؟

كلنا يعلم أن الناس في واقعنا إذا ما أرادوا أن يأتوا لزيارة أحد الملوك أو الكبار، ارتدوا ولبسوا أجمل وأحسن وأفخر ما لديهم

من الثياب، فما بال الحجيج حين يأتون لزيارة بيت الله الحرام (ولله المثل الأعلى) لا يرتدون إلا تلك القطعة المتواضعة البسيطة التي تشبه الكفن؟.

الناس حينما يُقبلون على ملوك الدنيا وكبارها، إنما يُقبلون على بشر.مهما بلغت منزلتهم، فهم بشر، ينظرون إلى المظهر الخارجي، لكن الله سبحانه وتعالى وَله المثل الأعلى لا ينظر إلى صورنا، لا ينظر إلى اللباس الخارجي الذي نرتديه، ولكن ينظر إلى لباس التقوى الذي يرتديه القلب الذي لا يطّلع عليه إلا هو سبحانه وتعالى.

لذا كان على الحاج أن يزين قلبه بالتقوى، ويعمّره بصلاح السريرة، وينقيه من كل حقد وسوء يضمره على مسلم، ويبرئ ذمته من حقوق الآخرين قبل التوجه لبيت الله، ليقبل على الله سبحانه بقلب نقي طاهر، ولباس من التقوى ساتر. كلنا يعلم أن الحجيج لا يهتمون بالكماليات كاهتمامهم بها في غير حال الحج، فالخالق مالك الملك الذي يتوجهون لزيارة بيته الحرام، لا ينظر إلى صورهم، لا ينظر إلى قطعة القماش التي يرتدونها، لا ينظر إلى أي ماركة أو أي صنف أو أي نوع ولكنه سبحانه ينظر إلى تلك القلوب التي لا ينبغي لها أن تأتي إلى الحج إلا وقد لبست وارتدت لباس التقوى.

وتأملوا قول الله تعالى في آية أخرى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾﴾ الأعراف سماه لباساً، ولكنه لا يصنّع في مصانع، بل يصنّع في قلب مخبت راجع لربه سبحانه بالتوبة والخضوع والتذلل والانكسار بين يديه. والتدبر في هذه الآيات العظيمة، يحي في قلبي تلك المعاني.

اليوم في رحلتي للحج تركت الدنيا وراء ظهري، تركت كل شيء وراء ظهري، الأولاد،والأموال والأعمال وكل المشاغل التي أخذت ردحاً طويلاً من حياتي ومن زمني ومن عقلي ومن خواطري ومن تفكيري. تلك الأشياء التي شغلت قلبي طويلاً أنا اليوم في الحج أتخلى عنها باختياري، ولكني سيأتي اليوم الذي سأخرج فيه رغما عني حين يحين الأجل. سأخرج بلا حقيبة ولا لباس سوى التقوى.

ما أعظم هذه المعاني التي تبنيها فيّ سورة الحج حين أقوم باستحضارها وأنا أنوي الحج، وأنا أقوم بالإعداد لرحلة الحج. هذه المعاني ينبغي أن تكون حاضرة أمام عينيّ، ينبغي أن أعيش الأيام القلائل قبل رحلة الحج بهذه الخواطر.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ مطلق المنافع،ممكن أن تكون هناك منافع دنيوية،ولكن التركيز الأعظم يظل على المنافع المعنوية. وأيّ منافع معنوية؟ أن أرجع بذنب مغفور، وسعي مشكور ،وعمل

مبرور، متقبل وتجارة لن تبور ليس كتجارة الدنيا. الحاج قد يذهب إلى الحج ويقوم ببعض الأعمال التجارية من شراء وما شابه.. ولكن المكسب الحقيقي والتجارة الحقيقية التي لن تبور هي التجارة مع الله سبحانه بالعمل الصالح. ولذا جاءت آيات في الحج يقول فيها الله سبحانه وتعالى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ البقرة. يا أصحاب العقول النيّرة المتدبّرة المتبصّرة التي تستطيع أن تتدبر في معاني ومقاصد الحج وأن تحوّل الحج من مجرد رحلة عادية إلى رحلة عمر حقيقية، إلى رحلة الدنيا والآخرة، إلى رحلة الذنب المغفور والتجارة التي لن تبور. كل تجارة إلى بوار إلا التجارة الوحيدة التي لن تبور، هي التجارة مع الله سبحانه وتعالى بالعمل الصالح النافع الخيّر.

ساعات الحج ودقائق الحج ولحظات الحج وثواني الحج من أغلى وأنفس اللحظات في العمر كله ،وليس فقط في الحج.لذا على الحاج المتوجّه ألا يشغل قلبه ولا لسانه ولا خاطره بشيء من الدنيا، لا يشغله بأي شيء سوى ذكر الله سبحانه. وتدبروا معي قول الله سبحانه وتعالى ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ إذن هو ذكر الله عز وجل في القلب، وفي اللسان، وفي الخاطر، وفي الذهن، الذكر المتواصل الذي لا ينقطع. بعد كل هذا العناء وبعد كل هذا الإكرام من الله عز وجل، على الحاج ألا يغفل عن ذكر الله، فالحج إكرام، الحج دعوة من الله سبحانه

وتعالى دعوة كريمة من رب كريم،ملك الملوك دعاك إلى بيته فكيف تكون إجابتك لهذه الدعوة؟ كيف يكون استغلالك لهذه الدعوة؟ كل لحظة كل ثانية هي لحظة نفيسة فلا تضيّعها في غير ذكر الله عز وجل، لا تضيعها في أيّ شيء سوى الله سبحانه وتعالى. وانظر إلى قول الله عز وجل في سورة البقرة مؤكدا هذا المعاني: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ. ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ. وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ سورة البقرة: (١٩٨) - (٢٠٣) . فاقبل عليه إقبالاً عظيماً لا تجعل لسانك ولا قلبك ولا خاطرك يفتر لحظة عن ذكر الله عز وجل. إجعل الذكر عبادة دائمة لا تنقطع في قلبك وفي نفسك، هذه هي التجارة التي لن تبور،و هذه هي المنافع الحقيقية المتوخاة من رحلة الحج.

﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ . تنتقل الآيات إلى الذبح، ليس المقصود في قضية الذبح مجرد الذبح، المقصود أن تذكر الله ايها الحاج ذكراً حقيقياً ذكراً يجعلك بالفعل تستحضر معاني التوحيد العظيمة، وتستشعر تسخير الله سبحانه وتعالى لك، كل ما في هذا الكون بما فيه من بهيمة الأنعام، لأجل أيّ شيء؟ لأجل أن تذكر الله عبادة وخضوعاً واستسلاماً وتقرّباً له سبحانه.

القضية تعود بنا إلى الذبح الأول وإلى قصة إبراهيم عليه السلام. إبراهيم أبو الأنبياء الذي حين جاءه في المنام أن يذبح ابنه الغالي اسماعيل لم يفكر ولم يتردد لحظة واحدة بالتضحية به وإنما قال له ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (١٠٢) ﴾ الصافات وما كان من الابن إلا أن قال ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ هذا النوع من أنواع التضحية هي ما أحتاج أن أستحضره اليوم وأنا أقوم بتقديم الأضحية. والأضاحي ليست قضية متعلقة فقط بالحاج بل هي مفتوحة للحاج ولغير الحاج فمن لم يتمكن من المشاركة في هذا الموسم من الخيرات موسم الحج العظيم والذهاب إلى الحج لا تفوته سُنّة الأضاحي، وحين أقوم بهذه الأضحية عليّ أن أستذكر التضحية ومعنى التضحية، أن أضحي لله عز وجل كما

فعل أبو الأنبياء لأني على يقين أن الله سبحانه وتعالى سيرزقني وسيعطيني حين أراد أن يضحي بابنه إيماناً وانقياداً وخضوعاً وتسليماً لأمر الله، حين أضحي أضحي لأمر الله سبحانه طاعة وتقرباً لله سبحانه.

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ كل نسك من مناسك الإحرام في الإحرام يبني في نفس المؤمن شيئا، لا يستطيع الحاج أن يمسّ طيباً، يرى الطيب ولا يمسّه، يرى الصيد ولا يقتله، يرى الشعر يزعجه ولكن لا تمتد يده إلى شعرة في قص وحلق.. تعظيما لأمر الله، تعظيما لما نهى الله عنه ووقوفاً عند حدوده: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

المسألة في الإحرام ليست مجرد مسّ طيب ولا مجرد صيد ولا أي شيء من هذه الأشياء لذاتها، وانما لكونها تحولت إلى تعظيم لحرمات الله، فهو الذي حرّم، تعظيم من حرّم وليس تعظيم الأمر لذاته فحسب.

حينما أعظّم الشيء وأقف عند حدود الله إنما أعظّم الله سبحانه وتعالى الذي أمرني ونهاني.

تخيلوا للحظات لو أن ذلك الحرص الشديد من قِبَل المُحرِم ألا يقتل الصيد وألا يمس الطيب... هذا الحرص الشديد لو استمر معنا بعد الحج في تعظيم ما أمر الله به، والوقوف عند ما نهى عنه في كل ميادين الحياة، لو أصبحنا وقافين عند حدود الله عز وجل دون مناقشة دون جدال، كيف ستكون حياتي؟ كيف ستكون أعمالي؟ كيف ستكون الدنيا؟ كيف سأكون مع أوامر الله سبحانه؟ كيف سأكون مع محارم الله عز وجل؟. ولذا قال بعض العلماء عندما تعصي الله سبحانه وتعالى لا تنظر إلى صِغَر المعصية وتقول كما يقول بعض الناس كذبة بيضاء أو كذبة صغيرة، لا تقل هذا ولكن أنظر إلى عظمة من عصيت سبحانه وتعالى.

الإحرام يعلمني أن أكون وقافاً عند أمر الله عز وجل ونهيه. الحج مدرسة عظيمة ودورة مكثفة تعلمني كيف أقف عند أوامر الله عز وجل، وأنتهي عما نهاني الله عنه سبحانه وتعالى.

أطوف حول البيت سبع مرات بحرص شديد على أن أقوم به على الوجه الذي أمرني به ربي، حرص شديد على عدم الوقوع في أي محظور من محظورات الإحرام، لماذا؟ لأن الحج مدرسة، لأن الحج أراد ربي سبحانه وتعالى أن يخرّجني في مدرسته عبداً مُحسناً، عبداً مُخبتاً، عبداً خاضعاً، لربه منقاداً لأمره، عبداً يُعظم حرمات الله عز وجل.

ولذا جاء قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾. وتأمل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ هذا الحضور الرائع المستمر المتواصل للتوحيد هو ما تبنيه سورة الحج في نفسي.

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ
وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ
جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ
ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا
وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ
ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ
ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن
دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ
بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ
يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

سورة الحج تحيي معاني التوحيد في قلوبنا، فمستوى التوحيد يزيد وينقص في قلوبنا من خلال سلوكنا وتصرفاتنا، إن ميل القلب في بعض الأحيان إلى البشر من دون الله، أو الإحساس بأنهم يملكون لنا نفعا أو ضرا، دون الاستعانة بالخالق...كل ذلك يشكل خللا في توحيدنا. قلة الثقة بالله سبحانه وتعالى كما ذكرنا في بعض الآيات، قلة إحسان الظن بالله سبحانه وتعالى، إساءة الظن بخالقي، عدم اليقين المطلق بالله عز وجل... تصححه سورة الحج ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾.

سورة الحج تعيدنا إلى الحنيفية السمحاء التي جاء بها إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام، سورة الحج توقظ في القلوب معاني التوحيد العظيمة. وتأمل الآية التي تليها ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ غاية الحج تعظيم شعائر الله سبحانه وتعالى.

تعظيم حرمات الله شيء عظيم ولكن الأعظم أن أعظّم شعائر الله عز وجل لأنها من التقوى. ودعونا نقف وقفة طويلة عند قوله سبحانه ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ غاية سورة الحج، هي التقوى التي تُبنى في القلوب بخطوات عملية من خلال تدبر وتطبيق آياتها.

من هنا كان بيت الله الحرام وكل الشعائر من منى إلى عرفة إلى

مزدلفة إلى منى ...كلها مقدسة ليست لذاتها، إنما من تعظيم شعائر الله التي أمر الله عز وجل بتعظيمها إيماناً وانقياداً وخضوعاً وتسليماً لأمر الله سبحانه وتعالى.

وتأملوا نحن في منى نرمي بالجمار نرمي بالحجارة، لماذا؟ الله سبحانه وتعالى قد أمر بذلك، فالنّبي صلى الله عليه وسلم الذي وقف هذا الموقف وقال خذوا عني مناسككم رمى بهذه الحجارة، في نفس الوقت هناك الحجر الأسود، والناس يطوفون حول الكعبة ويقفون عند هذا الحجر وأحياناً - إن سنحت لهم الفرصة - أن يقبّلوا هذا الحجر، فهم يفعلون اقتداء بسيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام وسيراً على هديه. ولذا قال عمر رضي الله عنه: لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبلك لما قبلتك.

ولنا أن نتساءل ...هذا حجر وذاك حجر، لماذا يُرمى هذا ويُقبَّل ذاك؟ هو تعظيم شعائر الله. التعظيم للشعائر من قبيل تقوى الله سبحانه الذي أمر بالتعظيم، ليس للأشياء ولا للأحجار ولا للأماكن في حد ذاتها.

وتأملوا معي في الدنيا كل شعوب العالم اعتادت على أن تعظّم وتحترم قطعة قماش تشكل علم هذه الدولة أو تلك، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل القيمة الحقيقية في قطعة القماش أم هي فيما تحمله من معنى! ولله المثل الأعلى.

تعظيم شعائر الله عز وجل، وإحترام أوامر الله سبحانه، وإحترام هذه الأماكن المختلفة التي أمر الله سبحانه والحفاظ على حرمتها بالحفاظ على قدسيتها إنما هو من تعظيم أوامر الله وتعظيم شعائره.

ونحتاج أن نتوقف للحظات عند احترام هذه الأماكن وعند تعظيم هذه الشعائر من خلال الحفاظ على نظافتها، فلا يُرمى فيها أي قطعة من ورق أو ما شابه، تعظيماً لشعائر الله وللأماكن التي شرّفها الله سبحانه وتعالى. ولذا من أشد العيب على المسلمين اليوم أن يُستهان بالطعام والشراب فيرمى في تلك الأماكن وتلك المشاعر المقدسة، هذا نوع من أنواع التهاون في شعائر الله عز وجل، آن للحجيج التنبه إليه والتوقف عنه.

وكما أن هذه المشاعر المقدسة جعلها الله سبحانه وتعالى حراماً وجعل لها مكانة وقدسية في نفوس المسلمين، فقد جعل للمسلم حرمة ومكانة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يتجاوزها أو يتطاول عليها. ودعونا نقف عند قول النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ

بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَوَالَّذِي نفسي بيده إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ﴾ رواه البخاري.

المسلم لا ينبغي أن يتجاوز على أخيه المسلم في هذه الأماكن المقدسة بذريعة الزحام أو الحر أو التعب أو أو ... وإن كان التجاوز في الأموال والأعراض والدماء حرام سواء كان في هذا اليوم أو في غير هذا اليوم – ولكنه في هذا اليوم أشدّ وفي هذه المشاعر المقدسة أشدّ حرمه . قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴿١٩٧﴾ ﴾ البقرة فلا كلمة نابية ولا كلمة سوء على أحد من المسلمين ولا محاولة إيذاء واحد منهم بأي شكلٍ من أشكالِ الأذى. وجاء في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ﴾ رواه مسلم.

هذا النوع من التعظيم لحرمات الله عز وجل ولأوامره سبحانه من أن تنتهك لا يمكن أن يقع إلا من قلب مخبت خاضِع تقي راجِع عائد إلى الله سبحانه وتعالى.

هذه المواقف العظيمة في الحج لا ينبغي أن تغيب عن أذهان الحجيج وهم يتوجهون في مواقف الحج المختلفة. للأسف الشديد في أثناء الزحمة الشديدة وما يحدث في مواقف الحج المختلفة من

غضب أحياناً، ومن نسيان للمواقف التي نمر بها كحجيج، يدفع البعض منا إلى أن يفقد أعصابه وربما تخرج منه كلمة لا تليق بالموقف الذي يقف فيه...هذا النوع من أنواع التهاون إنما هو تهاون في شعائر الله عز وجل ينبغي أن يتوقف الحاج عنه. ينبغي أن يتوب إلى الله عز وجل ويتراجع بسرعة، ويدعو الله أن يغفر له. فالحاج ضيف والضيف لا يخرج منه ما لا يليق وهو في ضيافة الرحمن، بل يسامح ويدعو بالمغفرة لكل مسلم زاحمه أو دافعه أو آذاه.... ويحتسب ذلك عند خالقه الكريم الذي هو في ضيافته.

ينبغي أن تكون خشيته وخوفه من خدش حجه لا تتوقف عند الخشية من قصّ شعرة أو مسّ طيب ..بل تمتد لتشمل كذلك الخشية من التحدث بكلمة نابية أو إساءة لمسلم أو رمي قطعة ورق أو طعام ..كل ذلك يعد من أنواع التهاون من بعض المسلمين في مواسم الحج ربما بدون قصد أو بحسن نية، لكن لابد من التوقف عن ذلك كله.

ثم تنتقل الآيات إلى شعيرة الذبح، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عن الأضاحي و عن الأنعام من جديد ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾.

القضية ليست قضية أن أذبح شاة ولا بعيراً، القضية تحولت إلى قضية أخرى قضية، إخبات القلب وتوحيده لخالقه، الذي خلق وسخر له كل ما في الكون ليوحده ويعبده. قضية توحيد ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قضية ذكر اسم الله عز وجل، وتوحيد رب العالمين، واستذكار المشاعر العظيمة. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ مرة أخرى ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إذن هي التقوى الحاضرة في كل عمل يقوم به المسلم لإخراج الشحّ من النفس، ليتعلم العطاء، ليتعلم الشعور بالآخرين، الشعور بالقانع والمعترّ، ليتعلم الإحساس بالفقراء والمساكين، ليتعلم كيف يخرج من أمواله الصدقات والعطاء.

القضية ما عادت قضية مجرد ذبح، الحج يخرّج نفسا محسنة، نفساً غير شحيحة، نفسا معطاء، تعلمت التضحية بالغالي والنفيس، تعلمت أن تسكت في كثير من الأحيان لكي لا تخرج

منها كلمة فيها إساءة لأحد من المسلمين صبراً واحتساباً لله سبحانه وتعالى وتعظيماً لشعائره.

النفس التي تعلمت أن تقف عند أوامر الله، أن تعظّم حرمات الله، وتعظّم شعائر الله، نفس تعلمت معنى التضحية و ذاقت جمال وحلاوة أن تترك شيئاً لله سبحانه وتعالى.

النفس التي تشعر بالغضب والضيق - بحكم الزحام والعدد المهول من البشر- فهذا يدفعها وذاك قد يدوس على قدمها ... لكنها تسكت وتحتسب، بل و تدعو بظهر الغيب لمن آذاها، هذه النفس العظيمة خرّجتها سورة الحج. هذه النفس تخرّجت في موسم الحج برتبة الإحسان، ولذا جاءت الآية العظيمة ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

قلبي الذي صنعته سورة الحج، قلبي الذي ربته سورة الحج، قلبي الذي تخرج في موسم الحج، قلب جديد ،قلب تخرّج برتبة محسن، برتبة مخبت ،برتبة راجع عائد إلى الله سبحانه وتعالى، فبذلك فليفرح المؤمن الذي تخرّج بهذه الرتبة. ولذا جاءت الكلمة بعد آيات سورة الحج بقوله سبحانه ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هنيئاً للحجيج ،هنيئاً لمن تخرجوا برتبة المحسنين هنيئاً لتلك القلوب التي ضحّت، هنيئاً لتلك القلوب والألسن التي لم تفتر عن ذكر الله، هنيئاً لتلك الأيدي التي لم تمتد بأذى لأحد من المسلمين،

هنيئاً لتلك الأيدي التي أمسكت فلم ترمي بورقة ولا بحجرة ولا بقطعة لحم ولا بحبة رز ولا بأي شيء صغيرا أو كبيرا تعظيماً لشعائر الله، هنيئاً لتلك الأيدي التي صافحت، هنيئاً لتلك القلوب التي سامحت، هنيئاً لتلك الألسن التي لهجت بذكر الله ليل نهار هنيئاً لتلك القلوب التي ضحت بالأضاحي وضحت بالغالي والنفيس تعظيماً لشعائر الله هنيئاً لتلك القلوب التي وقفت وتعلمت أن تقف عند أوامر الله هنيئاً لكل من عظّم شعائر الله فقد تخرجت برتبة محسن ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

هؤلاء الذين تخرجوا برتبة المحسنين هؤلاء الذين ربّاهم الحج وتعلموا في مدرسة الحج، تعلموا التضحية تعلموا الوقوف عند محارم الله، تعلموا تعظيم شعائر الله هؤلاء هم من يستحقون أن يدافع الله سبحانه وتعالى عنهم وانظر إلى قوله عز وجل بعد هذه الآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ثم بعد آيات الحج تأتي آيات القتال ويأتي الحديث عن الهجرة ويأتي الحديث عن الصراع الدائم بين الباطل والحق ولنا أن نتساءل - قبل أن نأتي على آيات الجهاد – يا ترى ما هو وجه التناسب بين الحديث عن الحج وبين الحديث عن الجهاد؟.

الحج والجهاد كلاهما نشرٌ للحق وللخير. الحج أعظم مؤتمر يمكن أن تنتشر من خلاله مبادئ الإسلام، عالمية الإسلام، سلام الإسلام، وسماحة الإسلام وكل القيم السامية التي جاء بها الإسلام. وكذا الجهاد، الجهاد فيه حماية لمبادئ الحق وقيمه، فلا بد للحق وللمبادئ وللقيم من أناس يذودون عنه وينتصرون له ويدافعون عنه، فأهل الباطل وأهل الكيد سائرون في طريقهم. وقد جاءت أكثر من آية في بدايات سورة الحج تتحدث عمن يصدّ عن سبيل الله، وعمن جعل أهم هدف وغاية له الصد عن سبيل الله سبحانه وإضلال الآخرين.

هؤلاء لا بد أن يقف في وجههم أهل الحق وأهل القيم وأهل المبادئ الذين ربّتهم آيات الحج. إن من لا ينتصر على نفسه في الحج لا يمكن أن يعرف النصر في الجهاد. الحج يعلم مجاهدة النفس وانتصارها على النفس. الحج يعلم صناعة القلوب. الحج يصنع القلوب القوية التي تستطيع أن تنتصر للحق وتدافع عنه، الحج يصنع القلوب الفائزة التي تستطيع أن تجني النصر والثبات أمام الباطل أهله.

وابن القيم له كلام جميل في قضية مجاهدة النفس والجهاد، يقول في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿٦٩﴾ العنكبوت ﴾ علّق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً وأفرض الجهاد (يعني أكثر أنواع

الجهاد فرضاً) جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سُبُل رضاه الموصِلة إلى جنته. ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطّل من الجهاد.ولا يتمكن المرء من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً ،فمن نُصر عليها نُصر على عدوه ومن نُصِرت عليه نُصر عليه عدوه.

هذا معنى أن يأتي الجهاد والحديث عن الجهاد بعد الحج، الحج مدرسة تعلّمنا جميعاً كيفية مجاهدة النفس كيفية وقوف النفس حين يحدث ما يُغضبها فتكفّ اللسان عن التلفظ ولو بكلمة لا تليق امتثالا لأمر الله.

تأتي الآيات عن الجهاد لتبين بأن هذا المؤمن الذي ربته هذه الآيات هو الذي يستحق أن يرفع راية الجهاد، فالجهاد شرف وقيمة ومنزلة:
﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ
وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ إذن هو الدفاع عن الحق و التضحية في سبيله القلوب المؤمنة تعلمت التضحية. لا يكفي أن أكون مؤمناً بالله عز وجل وبالحق وبالقيم وبالمثل في حال السراء. فإذا ما جاءت

وأقبلت الضراء وحقت الحقيقة، تخاذلت وتراجعت عن الحق الذي أؤمن به، هذا ليس بإيمان. الإيمان الحقيقي يثبت في السراء والضراء، الإيمان الحقيقي هو الذي تصقله التضحية كإيمان إبراهيم عليه السلام حين جاءت التضحية فلم يتوانى ولم يتراجع ولم يتردد. ما هو موقفي حينما يطلب مني ربي عز وجل أن أضحي لأجل الحق الذي أؤمن به؟ هل أشعر بالضعف والخذلان؟ أم أني أقف وأثبت على الموقف الذي أنا فيه؟.

ولذا جاء الوعد في الآية ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ نصرة الله بالحق الذي أؤمن به، أنصر الله عز وجل بثباتي على قيمي ودفاعي عن الحق الذي أؤمن به أمام أهل الباطل وأمام كيدهم وأمام مكرهم. ثم ماذا ستكون النتيجة؟ نصرة الله والتمكين في الأرض، تأتي الآية التي تليها بقوله عز وجل ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ إذن هو التمكين هو النصر هو فوز الحق على الباطل واعلاء كلمة الحق وحماية المقدسات و دور العبادة على اختلاف دياناتها، فالدين الإسلامي جاء ليحمي الديانات و المقدسات و ليدافع عن الحق وأهله ولم يأتي ليسفك أو ليهدم أو ليظلم أو ليؤذي الآخرين بدون وجه حق.

هذا الدين العظيم علّم أتباعه أن التمكين لا يعني الاستعلاء على الآخرين، ولا يعني استعباد الشعوب المختلفة، ولا يعني نهب مقدراتها بل هو الإصلاح، قمة الإصلاح تتحقق حين يمكّن الله عز وجل لهؤلاء العباد المؤمنين الموحّدين المخبتين لأنهم ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ شعارهم العملي والسلوكي هو الإصلاح ..أفعال وسلوكيات وواقع في الحياة التي يعيشونها. ولذلك شهد العالم المنصِف للمسلمين الفاتحين حين فتحوا الديار، و فتحوا بلاد الروم وبلاد الفرس، بأنهم فتحوا الديار بقلوبهم وبأخلاقهم وبأفعالهم وسلوكياتهم ولم يفتحوها بسيوفهم، الإسلام انتشر بالحق والعدل والقيم بأناس حفظوا القيم والمبادئ في سلوكهم قبل صدورهم، واستطاعوا أن يحولوا تلك القيم من خُطب رنّانة إلى سلوكيات وأفعال واقعة حادثة أمام أعين الناس تشهد لتلك القيم وتشهد للحق الذي آمنوا به ودافعوا عنه.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾
وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ
مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾
فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا
تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ
رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا
وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ
أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ
وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا
يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

ثم تأتي الآيات بعد ذلك في سورة الحج لتعرض مواقف من صراع الحق والباطل لتبين كيف أن دولة الباطل مهما علت ومهما امتد بها الزمن فإنها إلى زوال وأما الحق وأهله الحق فهم إلى ثبات وتمكين، وإن طال الزمن على محنهم:

إذن هي الدنيا والصراع والابتلاء والمحن. ولكن المحن والصراع لا تفتّ من عزيمة المؤمن الذي تعلم التضحية في سبيل الحق الذي يؤمن به ويدافع عنه وإن طال الزمن ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾.

قضية محسومة لا جدال فيها، كل من يسعى في الصدّ عن سبيل الله عز وجل فليس بمعجز قضيته منتهية إلى زوال، مصيره واضح والمؤمن يؤمن بهذا المصير ويسير على نور وهدى. أما الكافر فهو وحده من يعيش في مرية وفي شكّ ﴿ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ الكافر يسير في الحياة في شك وارتياب ينظر إلى الحقائق أمام عينيه ولكنه لا يبصرها، لأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، القلوب التي لم تستطع أن تخبت لخالقها لم تخضع له كما يخضع كل ما في الكون من شجر وجبل وطير. الكل يخضع إلا هذا الإنسان الكافر ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴿٥٦﴾ ﴾

لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ
قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا
يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ
يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ
رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا
يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن
دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى
ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ
أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ لِّكُلِّ
أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ
رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ
تَخۡتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ
فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ
يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ
ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢

وتعود الآيات للحديث عن الجزاء وليجعله حاضرا في كل مقاطع السورة ولتحث على بناء العمل عليه. ثم تأتي الآية لتبين صفة جديدة من صفات المؤمنين، ومثالا آخر من أمثلة التضحية التي يمكن أن يصقلها الإيمان ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الهجرة وترك الوطن والأهل ...

الإيمان يحتاج إلى تضحية، إيماني بالله عز وجل معرّض لمحن، معرّض لاختبارات، معرّض لابتلاءات، المهم ليس في الابتلاء بل في النتيجة التي سأخرج بها من هذه الابتلاءات، عليّ أن أخرج أشد عوداً واصلب إيماناً وأقوى عزيمة وحراكاً ودفاعاً عن الحق الذي أؤمن به.

المؤمن الذي تعلّم التضحية في الحج وفي غير الحج هو وحده من يستطيع أن يهاجر في سبيل الله، أن يترك أرض الوطن ويترك الأهل والأحباب، لماذا؟ لله وحده لا شريك له، وعلى يقين بأن يحسنُ الظن بالله عز وجل، أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يعوضه خيراً مما أخذ منه ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المؤمن الذي يعيش وهو يستحضر الجزاء يستحضر الثقة بالله واليقين بما عند الله، فيكون أوثق بما عند الله عز وجل مما في يديه هو من مال أو من جاه أو من سلطان أو وطن أو ولد.

هذا المؤمن وحده هو القادر على أن يضحي ويقدم كل شيء لأجل الله وفي سبيل الله. ولذا جاءت الآية وعد واضح وصريح ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ إنها الثقة بالله التي تحرك المؤمن وتدفع به في ميادين الحياة المختلفة.

ثم تتوالى الآيات لتعزز جوانب هذه الثقة في النفس، فيقين النصرة من الله تعالى كيقين ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل ،ويقين الرزق من الله كيقين نبات الأرض من السماء.دليل حي منظور على وعد الله للمؤمنين. وتتسلسل الآيات تسلسلاً عجيباً. ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿٦١﴾-﴿٦٤﴾ .

إن عبدتُ فاعبُدْ الغني الحميد الذي يملك مقاليد السموات والأرض إن توجهت لاستنصار أو لطلب معونة أو لاستغاثة أو استجارة فاستجر بالملك بالواحد الديان القادر على كل شيء قدير، فهو سبحانه الحق وكل ما سواه باطل.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ هذا الحق الذي تعلمني عليه آيات سورة الحج يعزز بناء اليقين والتوحيد ومن ثم التقوى في نفسي.

وتتوالى الآيات لتعزز هذا البناء العظيم من خلال عرض آيات الكون وتدبرها واستشعار قدرة الله عز وجل في الكون والتدبير الذي يدبر به الله سبحانه وتعالى هذا الخلق العجيب ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾.

هذه الآيات العظيمة تهزّ وجدان المؤمن تحرّك فيه فواعل الإيمان، تجعل التوحيد حاضراً في قلبه، حاضراً في نفسه ليتوجه بالتقوى والإخلاص لله وحده لا شريك له، الذي بيده العلم والملك والقدرة المطلقة، بيده كل شيء فلماذا أتوجه للآخرين؟ ولماذا أتوجه لمخلوق مثلي- مهما ظننت أنه يمتلك من القوة والمال والجاه- فإنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، هو أضعف من أن ينصر نفسه حتى ينصر الآخرين، فكيف أتوجه له؟!

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا
لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟
رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ
حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى
هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى
ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ
مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

ولذا جاءت الآيات التي تليها بعد ذلك والخطاب فيها للناس أجمعين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

الكلام للناس جميعاً، لكي يتخلوا عمن اتخذوهم أولياء من دون الله، لكي يتخلوا عمن استنصروهم من دون الله عز وجل. الكلام لأولئك الذين طرقوا ويطرقون أبواب المخلوقين استعانة واستنصاراً واستغاثة ولجوءاً، إلى أولئك الذين يظنون أن المخلوقين من دول -عظمى وغير عظمى- تملك لهم النفع أو الضر، تملك لهم العطاء أو المنع، تملك لهم أي نوع من أنواع القدرة أو النصرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في هذا المثل أن هؤلاء حتى الذبابة تعجزهم! - كم هي حقيرة الذبابه لدى البشر ؟- فإنهم لا يتمكنون من خلقها حتى لو اجتمعوا على ذلك. بل أقل من ذلك، فإن سلبهم الذباب أو أخذ منهم شيئاً لن يتمكنوا من استنقاذه أبداً ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. تلك المقارنة العجيبة التي تضعها هذه الآية العظيمة أمام ذلك الإنسان المكابِر المعانِد الجاحِد الذي لا يعرف لله سبحانه وتعالى قدره.

هذا الإنسان الذي يجادل ويماري بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير،

يستطيل ويتطاول على خالقه سبحانه، ويظن أن له قدرة وأن له قوة وأن له جيوشاً تسيّر، وأن له منعة، وهو لا يملك حتى أن يأخذ ما يسلبه منه الذباب! وتأتينا الدرسات العلمية الحديثة لتبين أن الذباب بطبيعته بمجرد أن يلتقط أو يأخذ شيئاً فإنه يفرز عليه إفرازات تغير من تركيبته فإنه حتى إن إستطاع الإنسان أن يمسك بالذبابة التي أخذت منه شيئاً لا يستطيع أن يسترجع ذلك الشيء ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

الذبابة ضعيفة وهي خلق من خلق الله، والإنسان ضعيف وهو خلق من خلق الله، لكنه يتطاول ويغتر ويعاند، ويعتقد - بأهوائه وشهواته - أنه يستطيع أن ينازع الله سبحانه وتعالى في ملكه وفي قدرته وفي قوته، يظن أنه قوة وأن له قدرة، والحقيقة أن ليس له إلا الضعف الذي بينته هذه الآية العظيمة.

ثم تأتي الآية العظيمة وفيها السجدة دعوة للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اتركوا عنكم هؤلاء الكافرين والمعاندين فسُنّة الله سبحانه وتعالى ماضية في خلقه وماضية في الكون. الصراع بين الحق والباطل قائم وعناد الكفار واستكبارهم واقع، فلا عليكم منهم: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ فالدنيا دار عمل، وابتلاء وتكليف الدينا ليست بدار جزاء .كل ما تستطيع أن تفعل فيها من الخير فافعل، لا تتردد

ولا تجعلنّ من أهل الباطل ولا من كيدهم ولا من مكرهم ولا من الامتحانات التي يعرضونك لها، عائقاً يحول بينك وبين عمل الخير وإعلاء الحق. بل على العكس، اجعل أهل الباطل والصراع مع أهل الباطل مطية ودرجة ترتقي بك في سلم الإيمان والتقوى، فكلما ازددت دفاعاً عن الحق الذي تؤمن به، وفعلاً للخير وللمعروف، ونشراً للسلام والأمان في هذه الأرض، كلما ازددت تقرباً من الله خالقك عز وجل.

ثم تأتي الآية لتختم سورة الحج العظيمة ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

الآية الأخيرة تختم بالجهاد، الآية الأولى في سورة الحج يقول فيها الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ والآية الأخيرة توصي بقوله ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ اتقوا وجاهدوا في الله حق جهاده.

الأمر بالتقوى في أول آية وخلاصة تحقيق التقوى في آخر آية، فتقوى الله لا بد لها من جهاد، لا بد فيها من مجاهدة النفس ومن لا ينتصر على نفسه وأهوائه وشهواته ونزواته وميوله وخضوعه

وركونه إلى الدنيا وأهلها، لن يتمكن من الانتصار على أحد لأنه لم ينتصر في داخله.

النصر الحقيقي في النفس النصر الحقيقي الذي يتبعه التمكين، لا يمكن أن يبدأ إلا من داخل النفس.

ثم إن الآية الأخيرة تؤكد على عالمية الإسلام وشهادة المسلمين على الناس. ولنا أن نتساءل: ما دور الحج في قضية عالمية الرسالة؟

الحج يحمل رسالة عالمية. الحج يفترض فيه أن يقدم لكل العالم -حتى غير المسلمين- يقدم لهم عنواناً وصورة حقيقية لهذا الدين، لتعاون المسلمين ولوقوفهم جنباً إلى جنب، لتواضعهم ولانكسارهم وخضوعهم بين يدي الله. المؤمن خاضع ذليل بين يدي ربه ولكنه قوي على أهل الباطل لا يذل إلا لخالقه، لا يركع لأحد سوى خالقه، لا يسجد لأحد سوى لربه سبحانه وتعالى. تلك الجبهة التي تعلمت أن تسجد لخالقها لا تسجد للمخلوقين،و لا تتخذ المخلوقين أولياء من دون الله سبحانه، لا نصرة ولا استعانة ولا ظناً بنفع أو بضر.

رسالة الإسلام جاءت لتكون رسالة عالمية جاءت لتقدم للعالم القيم، جاءت لتقدم للعالم السلام وجاءت للشهادة على تبليغ الناس. وهذا من أعظم التكاليف على للمسلمين عليهم أن يقوموا بدورهم وواجبهم تجاه هذه التكاليف وهذه الشهادة للعالم وعليه! ولذا فكل حاج عليه أن يتذكر ويستحضر هذا

المعنى ويضع أمام عينيه أنه هو في حجه رسالة للعالم. فيا ترى بأي شكل؟ وبأي مظهر ستقدم هذه الرسالة. أيها الحاج؟

عليّ أن أستحضر هذه الأمانة في كل سلوك وكل تصرف أقوم به في الحج وفي غير الحج ولكن في الحج و في المشاعر المقدسة أولى، عليّ حين تسوّل لي نفسي أن أرمي بورقة أو قطعة خبز أو زجاجة فارغة....عليّ أن أمتنع عن ذلك و أن أضع نصب عيني أني أنا من الشهداء على الناس، أني أحمل رسالة الإسلام، أنا من يقدم الإسلام للعالم، فعليّ أنِ أحسن التقديم، وعلي أن أحسن العرضِ، وعلى المسلمين جميعاً أن يجعلوا منِ الحج أبهى صورة، جمالاً ونظافة ونزاهة وقداسة وروحانية وإقبالاً على الله سبحانه وتعاوناً ومحبة فيما بينهم.

فكل إساءة لا تعتبر مجرد إساءة فردية، وإنما هي إساءة لرسالة الدين العظيم، إساءة لعالمية الاسلام، وللقيمة الكبرى التي جاء بها الإسلام، قيمة نشر هذا الدين ولذا جاءت الآية العظيمة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

على الحجيج في كل وقت وفي كل زمان أن يستحضروا هذه الرسالة العظيمة والأمانة الكبيرة التي شرّفهم الله سبحانه وتعالى بحملها في موسم الحج، عليهم أن يكونوا أمناء في إيصال هذه الأمانة أمناء في إبلاغ هذه الرسالة فعلاً وسلوكاً وتطبيقاً وعملاً.

فالنبي صلى الله عليه وسلم الذي وقف ذلك الموقف ونادى بين الناس «اللهم هل بلّغت، اللهم فاشهد» قد بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة على أتم وجه وأكمله صلى الله عليه وسلم، وعلى عاتقنا اليوم تقع أمانة إيصالِ هذه الرسالة. لا نريد أن نكون نحن اليوم من يقف عائقاً وحائلاً بين العالم وبين رسالة الإسلام العظيمة، من خلال تصرفات هوجاء، أو سلوكيات شاذة لا تمت إلى ديننا بصلة. فديننا يدعو إلى كل جمال، يَدعو إلى التعاون و المحبة، يدعو إلى النظافة والنزاهة، و إلى كل جميل. علينا أن نكون أمناء في إيصال رسالة أبينا إبراهيم ونبينا محمد صلوات الله عليهما أن نكون أمناء في إيصال كلمات الحق ليس من خلال الكلمات، بل من خلال السلوك والأفعال ويرزقهم القلوب.

أسأل الله العظيم أن يبارك للحجيج في حجهم، وأن يوفقهم لما يحبه ويرضاه وأن يبلغهم التقوى ،يرزقهم القلوب المخبتة الخاشعة الخاضعة لربها، وأن يعينهم على أداء أمانة الحج وتبليغ رسالته، وأن يجعل هذا الموسم العظيم فاتحة خير ورشد وإيمان وبركة على المسلمين، وعلى العالم بأسره والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدعاء

- رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.
- ربنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار.
- ربنا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.
- رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

- رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ, رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.
- رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.
- رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.
- رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ.
- حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيْحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِيْ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِيْ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِيْ وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ.

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِيْ تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا. أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا.

- اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُوْ فَلَا تَكِلْنِيْ إِلَى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِيَ شَأْنِيْ كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

- اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِيْ بِيَدِكَ، مَاضِيْ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ. أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِيْ كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِيْ عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيْعَ قَلْبِيْ، وَنُوْرَ صَدْرِيْ، وَجِلَاءَ حُزْنِيْ، وَذَهَابَ هَمِّيْ.

- اللَّهُمَّ أَعِنِّيْ وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِيْ وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِيَ وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِيْ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اجْعَلْنِيْ لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوَّاهًا مُنِيْبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِيْ، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِيْ، وَاهْدِ قَلْبِيْ، وَسَدِّدْ لِسَانِيَ، وَاسْلُلْ سَخِيْمَةَ قلبي.

- اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِيْنِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي، وَتَرْحَمْنِيْ، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِيْ غَيْرَ مَفْتُوْنٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِيْ إِلَى حُبِّكَ.

سُورَةُ الحَجِّ

سُورَةُ الحَجِّ



www.drruqaia.com

Facebook @Dr.Ruqaia Al-Alwani

twitter http://twitter.com/drruqaia